الناس اخوة

أهدي ببغاء الى ابنة فألفته والفها وبعد شهور قليلة دخلت ابنة عرس اليه وعضته فاماتته . فحزنت عليه الابنة وبقيت اياماً لا تتعزى عن فقده وشاركها ابوها وامها في حزنها ومرض جواد ووقع على الارض يتألم ورآه صاحبه وسائسه على تلك الحال فلم يستطيعا ان يمتنعا عن البكاء . وامثال ذلك كثيرة تقع كل يوم فلا نطيل الكلام فيها

يصاب احد معارفك او اقاربك بمرض مؤلم فيصرخ ويتوجع فتشعر كأن صراخه انت كبدك وتخرج تفتش له عن طبيب او عن دواء ولو في نصف الليل وتحت المطر

ويموت جارك او صديقك او قريبك فتحزن عليه وتبكي وتنوح . وترى رجلاً حُكم عليه بالقتل وعلق فتمر عليك ايام وانت منغص العيش مكروب النفس تشعر كأن بلاطة على صدرك

هذه حال الانسان الطبيعي يتألم لاخيه وقريبه وجاره وابن نوعه ولو كان بعيداً عنه بل يتألم للحيوان الاعجم . وهذا الانسان نفسه تثور ثائرة الغضب في نفسه فيهجم على اخيه الانسان ويمزقه تمزيقاً لا شفقة ولا حنان فاين الحب واين الاخاء

اخلاقنا في الطبع الخو حديث والجفاء قديم يتنازعان الانسان فيتغلب هذا تارة وذاك اخرى حسب عوامل الزمان والمكان . وللفضلاء اهتمام شديد بتقوية الخلق الحديث فاقاموا الادلة على ان الناس اخوة من اصل واحد ودمثوا الاخلاق بالتربية والتعليم فقويت عاطفة الحب والحنان وضعفت عاطفة البغض والجفاء حتى لقد اخترعوا الوسائل لازالة الالم من الذين يحكم عليهم بالقتل شفقة عليهم . بينما هؤلاء الفضلاء يسعون هذا المسعى الحسن يسعى غيرهم في اقامة الادلة على ان الناس غير متساوين بالفطرة وانهم مرؤس ورئيس رجل يسعى ورجل يُسعى له

قال كاتب من كتّاب العصر في جريدة الاستقلال الاميركية يذهب كثيرون الآن من اهالي اوربا واميركا من صميم المتمدنين ان اولاد بعض الناس يولدون ليكونوا عبيداً وخداماً لاولاد غيرهم وان اتباع هذا المذهب اكثر مما كانوا منذ مئة عام

فقد عاد الاستعباد الذي يحب الاوربيون والاميركيون انهم الفوه لكنه عاد بصورة جديدة . فلم يكتفوا بالقول ان بعض الناس مخلوقون ليكونوا عبيداً لغيرهم بل قالوا ان بعضهم

مخلوقون ليكونوا اسياداً فتكون السلطة في يدهم سياسية او عسكرية او دينية . واتخذوا مذهب النشوء الطبيعي عضداً لهم فقالوا ان بقاء الاصلح قضى باشياز بعض الناس على البعض وبعض الامم على بعض وبعض الامم على بعض وان القوي ليس مكلفاً بحماية الضعيف الا بمقدار ما يكلف الانسان بحماية بهيمته لاجل منفعته . هذه خلاصة ما يقولونه ولكن اللوم ليس عليهم بل على علماء الطبيعة الذين وضعوا اساس هذا المذهب مذهب بقاء الاصلح وتركوه على اطلاقه . ومثلهم في تحميل اللوم فيلسوف مثل فردريك نيتشه الالماني ينادي منذ خمسين سنة الى الآن ان نوع الانسان قد وضعف بمقاومة ناموس الطبيعة وحماية الضعفاء والزعانف وانه لو أطلقت يد الطبيعة حتى يتغلب القوي على الضعيف والصحيح على السقيم والعالم على الجاهل لزال نسل الضعفاء والسقماء والجهلاء ولم يبق الا الامم الراقية من طوائف الناس . وفاته ان هذه الطوائف الراقية متباينة ايضاً في درجات رقيها واذا أطلق لها العنان قويت فيها الشهوات القديمة الدنيئة التي هي ارسخ في طبعها من المناقب التي اكسبها اياها التعليم والتهذيب فيقوم بعضها على بعض ويفني بعضها بعضاً والبقية الباقية منها يكون شعارها الاثرة والفطرسة . وقولنا هذا لا ينفي ما يسعى اليه الفضلاء مثل السر فرنسيس غلتن وحزبه الذين يبذلون الجهد الآن في حث الاقوياء على التزوج واخلاف النسل ونصح السقماء المصابين بامراض وراثية ان لا يتزوجوا ويخلفوا نسلاً سقيماً مثلهم لانهم لا يطلقون العنان للطبيعة

الا ان لاصلاح النسل ونزع التباغض والتضاغن سبيلاً آخر بيولوجياً طبيعياً وهو اختلاط طوائف الناس بعضها ببعض بالتزاوج فان هذا الاختلاط يقوي انواع الحيوان كل نوع على حدته كما هو ثابت علماً واختباراً فعلى مَ لا يقوي نوع الانسان ولا سيما اذا كان بين الطوائف المتقاربة

كان سكان مصر الاقدمون امة واحدة وكان عمرانهم بسيطاً ورقيهم قليلاً كما يستدل من آثارهم فدخل البلاد اقوام من الشمال واقوام من الجنوب فاختلطوا بهم وكان اكثر اختلاط السكان في الوجه البحري بالاقوام الشمالية واكثر اختلاطهم في الوجه القبلي بالاقوام الجنوبية فزاد عمرانهم واسرع ارتقاؤهم . وما جرى في هذا القطر جرى في كل الاقطار التجارية فامتزجت الشعوب بعضها ببعض وزاد ارتقاؤها . اما الاقطار النائية التي ليست في طريق التجارة فاضطرت ان تهاجر وتختلط بغيرها او بقيت في اماكنها راضية بالضعف والصغار

وامتزاج الامم من اقوى الوسائل الطبيعية لترقيتها واضعاف خلق الاثرة والتباغض وتقوية خلق الايثار والتواد . فعلى الذين يهتمون باصلاح نسل الانسان وترقيته جداً

وعقلاً ان يسعوا في اقناع ابناء نوعهم انهم وسائر الناس من طينة واحدة ولا يمتاز بعضهم على بعض الاَّ بالفضائل المكتسبة . وان كانت الاديان قد فرَّقت بينهم في ما مضى فعلى زعمائها ان يزيلوا اسباب التفريق الآن . وان كان رجال السياسة يسعون الى احكام اسباب العداء بين امة وامة وشعب وشعب فعلى علماء الاجتماع ان يحبطوا مساعيهم ويسفهوا اراءهم . وعلى رسل الخير دعاة الاديان ان يجعلوا غرضهم الاول التعليم بان الله صنع من دم واحد كل امة من الناس يسكنون على كل وجه الارض

ولا يخفى ان الكلام لا يفيد عشر ما يفيده العمل وانهُ اذا كان عمل المعلم مخالفاً لتعليمهِ ذهب تعليمهُ ادراج الرياح . فالبشر الذي يعلّم ان الناس من دم واحد ويقاطع اختهُ او ابنتهُ اذا تزوجت رجلاً اجنبياً لمجرد كونهِ من غير امتهِ ينقض بعملهِ كل ما يقولهُ بلسانهِ ويثبت للملإ انهُ جاهل لا يفهم معنى ما يعلّم بهِ او منافق يظهر الايمان ويبطن الكفر

ولا مثل التزاوج بين الامم لتكوين عرى الاتحاد فضلاً عن فائدتهِ في تقوية النسل . وان افضل مشهد شهدناهُ وكان لهُ الوقع الاكبر في نفوسنا حفلة الامام المرغني في هذه العاصمة وقد اجتمع فيها العرب والترك والفرس والمصريون على اختلاف امهم وكثيرون غيرهم من امم السودان وصاروا كلهم الى قبلة واحدة وراء امام واحد وعبدوا ايهًا واحداً على صورة واحدة ثم جلسوا على موائد الطعام يضمهم وسمرهم وسودهم صعيدهم وخلاسيهم على اختلاف اشكالهم واديانهم كانهم من بيت واحد وكثيرون منهم مرتبطون برباط القرابة ولو كانوا من امم مختلفة . وان ابلغ عبارة سمعناها قول شيخ من ائمة هذا القطر تراهُ فتحهُ من الشراكسة عن اخيهِ وهو اسود وابن جارية سوداء « اخي الامام فلان قال كذا وقولهُ الصواب » . فاباحة التزاوج بين الامم المختلفة والترغيب فيهِ خير واسطة تربط الشعوب واذا سلمت من البغض الديني والمذهبي وكان العقاب عنوانها ربطت امم العالم اجمع واصلحت ما عجزت عن اصلاحهِ الشرائع والسنن . ولكن اختلاف الاديان وجعل هذا الاختلاف مصلحة من مصالح المنتفعين بهِ يبقي فاصلاً بين الامم وسدًّا حصيناً يمنع اتصالها . فهل يسير العمران سيرهُ في الخطة التي اشرنا اليها خطة اقناع الناس انهم اخوة من دم واحد او يسير في الخطة الثانية خطة القائلين ان الناس غير متساوين واذا ساويت بينهم اليوم اختلفوا غداً وزادت نواميس الطبيعة القوي قوةً والضعيف ضعفاً الى ان يفترس الضعيف من امامهِ القوي ويفني الناس بعضهم بعضاً . هذان امران متاليدهما في ايدي رؤساء الامم وزعمائهم